صفحات من تاريخ الاستشراق (1)

الدكتور محمد كامل عياد

- ٨ -

مناقشة حول الجهاد :

في عدد كانون الثاني من سنة ١٩١٥ نشرت المجلة الهولندية المشهورة (De gids) مقالاً بعنوان « الحرب المقدسة من صنع ألمانية » .

إن كاتب المقال هو الأستاذ (سنوك هورغرونيه Snouk Hurgronje) [١٨٥٧ -١٩٣٦] ، أكبر المستشرقين الهولنديين المتخصصين بدراسة الاسلام ، الذي كان يتمتع بشهرة عالمية ، وتربطه بألمانية صلات كثيرة شخصية وعلمية ؛ والذي كان المستشرقون الألمان يعتبرونه واحداً منهم ، ويعتقدون بأنه سوف يتفهم وضع ألمانية الخطير في الحرب العالمية الأولى ؛ وهم لم يكونوا ، على كل حال ، ينتظرون منه أن يوجه إلى السياسة الألمانية مثل التهم التي وردت في مقاله .

وفي الواقع فإن (سنوك هورغرونيه) ، على الرغم من وقوف بلاده على الحياد ، قد هاجم سياسة ألمانية تجاه الإسلام بتهكم لاذع ، وأظهر براعة في اختيار الشواهد من أقوال بعض المستشرقين الألمان التي انتزعها من سياق الكلام الأصلي ، والتي تدل على عداوتهم للإسلام من قبل ، بينما أخذوا مؤخراً يؤيدون زعامة الدولة العثمانية في العالم الإسلامي ، ويحرضونها على إعلان الجهاد ضد خصوم ألمانية .

وقد انبرى للردّ على المقال المستشرق الألماني المعروف (كارل هاينريخ بيكر) الذي تعرض له (سنوك هورغرونيه) رغماً عما كان بينهما من علاقات

(١) انظر المقال السابق : المجلد ٤٥ « سنة ١٩٧٠ » ص ٩٩ .

ودية . وكان (بيكر) من المعجبين بابحاث (سنوك هورغرونيه) لا يفتأ يشيد بمكانته العلمية والاعتراف بفضله على سائر المستشرقين ، بل ان الجميع كانوا يعدّون (سنوك هورغرونيه) ومعه المستشرق المجري (غولدتسيهر) المؤسسين الحقيقيين لما يسمى (علم الإسلاميات) . كان (بيكر) ، كما لاحظ (سنوك هورغرونيه) نفسه ، يمتاز دوماً بالاعتدال واللباقة في التعبير عن آرائه . وقد حافظ على هذا الأسلوب في مناقشة مقال (سنوك هورغرونيه) ثم في الرد أخيراً على جوابه حتى انتهى الجدال بالتخفيف من شدة التهم المتبادلة ، التي إنما كان الدافع إليها ، حسبما اعترف الطرفان ، تضارب المصالح الوطنية والخلافات السياسية الطارئة ولذلك صرحا أنه من الممكن أن يتم التفاهم بينهما ويطوى الموضوع .

* * *

يؤكد المستشرقون عامة ، عند البحث في تاريخ الاستشراق وتطوره ،على أنهم قد أصبحوا منذ القرن الثامن عشر لا يستهدفون سوى المعرفة العلمية المجردة ، وأنهم قد تحرروا من الأغراض والنعرات الدينية التي كانت الحافز الأساسي في نشأة الاستشراق .ويدعي الكثيرون الحب للعرب والإسلام والدفاع عن الشرق وحضاراته العريقة ، ويعلنون أن دراساتهم إجمالاً لها صفة إنسانية وطابع علمي محض .وعلى الرغم من اعترافهم في الوقت نفسه بأن عدداً من المتخصصين في العلوم العربية والإسلامية قد انحرفوا مع الأغراض السياسية ووضعوا أنفسهم في خدمة الاستعمار ، إلا أنهم في المعتاد لا يفضح بعضهم بعضاً ،وهم يحرصون في مؤتمراتهم الدولية على الدعوة إلى التفاهم والتضامن بين دولهم في مواقفها تجاه الشعوب الشرقية .

وهكذا فإن المناقشة بين (سنوك هورغرونيه) و (بيكر) كانت من الحوادث النادرة ، الشاذة في تاريخ الاستشراق . ويقول (بيكر) إنه لم يكن

يرغب في إعادة نشر ردّه في الجزء الثاني من كتابـــه « دراسات إسلامية » [Islamstudien] لولا أن سبقه (سنوك هورغرونيه) وأعاد نشر مقاله في المجلد الثالث من مجموعة « آثاره المتنوعة » [Verspreide Geschriften] . وبما أن هذه المناقشة تكشف لنا كثيراً من الحقائق والخفايا عن بعض كبار المستشرقين الذين اشتهروا بنزعتهم العلمية وآرائهم الحرة ، لذلك حرصت على نشر خلاصتهـا في هذه الصفحات .

* * *

إن انضمام الدولة العثمانية إلى جانب ألمانية والنمسة في الحرب العالمية الأولى في خريف سنة ١٩١٤ كان حادثاً مفاجئاً بالنسبة إلى الكثيرين . وقد رحب الألمان بالحليف الجديـد ، ليس تقديراً منهم لقوة الجيش التركي وشجاعته فحسب ، بل كذلك أملاً في الاستفادة من مكانة الدولة العثمانية في العالم الإسلامي . وفي الحقيقة لم تمض أيام على إعلان الحرب حتى قام الخليفة ـ السلطـان بالاستناد إلى الفتاوى الشرعية الخمس الصادرة عن شيخ الإسلام في إستانبول يدعو جميع المسلمين إلى الجهاد ضد انكلترة وفرنسة وروسية . وأخذت الصحف الإنكليزية بصورة خاصة تتهم ألمانية بأنها هي التي تدفع الأتراك إلى إثارة النعرات الدينية .

وقـــد دهش المستشرقون الألمان من أن ينخدع عالم كبير مثل (سنوك هورغرونيه) بمثل هذه الدعاية وينشر مقـاله بعنوان « الحرب المقدسة من صنع ألمانية » .

يبدأ المستشرق الهولندي كلامه بذكر أقوال أحد معارفه من رجال تركية الفتاة الذين كانوا يجاهرون بحرية العقيدة والذين إنما قاموا بثورة (١٩٠٨) للتحرر من تقاليد القرون الوسطى والذين كانوا يريدون حقاً ، حسب قوله ، « الفصل بين الدين والسياسة ولكنهم تظاهروا بالتساهل فحافظوا في الدستور على النص الذي يعتبر الإسلام دين الدولة الرسمي » .

وبعد البحث بالتفصيل في مفهوم الجهاد حسب التعاليم والمذاهب الإسلامية باعتباره وسيلة لنشر سيطرة الإسلام، وللدفاع عن بلاد المسلمين، ينتقل (سنوك هورغرونيه) إلى استعراض التطور التاريخي الذي أدّى إلى تمزيق شمل المملكة الإسلامية وسقوط بغداد في أيدي المغول، وتجريد الخلافة عملياً من كل أهمية، حتى صار الكتاب الغربيون في العصور الأخيرة يشبهون الخليفة بالبابا في العالم المسيحي، والذي يتمتع بمكانة روحية فقط، على أن الجماهير الإسلامية ظلت، حسب قوله، تنظر إلى الخليفة على أنه رئيس المسلمين حقاً، وتحلم بأنه سوف يسيطر يوماً على العالم كله. وقد احتفظ سلاطين آل عثمان بلقب «أمير المؤمنين» على الرغم من أن تسعين في المائة من المسلمين كانوا يخضعون للسيطرة الأوروبية، بينما الدولة العثمانية نفسها إنما ظلت قائمة بسبب التنافس بين الدول العظمى. ثم يتكلم (سنوك هورغرونيه) على التقارب الذي حصل بين البلدان الإسلامية في أواخر القرن التاسع عشر بفضل وسائل النقل والاتصال الحديثة وقيام حركة الجامعة الإسلامية التي عمل السلطان العثماني عبد الحميد الثاني على تأييدها واستثمارها، ولم تتورع بعض الدول الأوروبية، مثل انكلترة، عن مجاراته في ذلك طمعاً في صداقته، ولأجل إرضاء رعاياها المسلمين في الهند. كذلك يسخر (سنوك هورغرونيه) من محاولات ألمانية لاستمالة الدولة العثمانية إلى جانبها، وبالأخص من زيارة الإمبراطور (غليوم الثاني) إلى استانبول ودمشق سنة ١٨٩٨ والخطبة التي ألقاها عند ضريح صلاح الدين الأيوبي، «قاهر الصليبيين».

ويذكر (سنوك هورغرونيه) أن الكتاب والمستشرقين الألمان أخذوا، بعد نشوب الحرب العالمية الأولى، يرجعون «مبادىء سياسة الألمان الإسلامية الواعية» إلى تلك الحقبة، ويقول إن ألمانية قد تجاهلت بين سنة ١٨٨٨ وسنة ١٩٠٨ الشعب التركي لأنها لم تكن لها حينئذ مصلحة لديه، وأن الأمبراطور لم يعد يكترث بعد ذلك بمصير صديقه الحميم عبد الحميد. وهو يؤكد أن ألمانية كانت

تدعم النمسة عندما قامت هذه بتشجيع البلغار على الانفصال عن الدولة العثمانية، وعندما أقدمت هي نفسها على احتلال مقاطعتي (البوسنة والهرسك) في سنة ١٩٠٨ . كذلك يشير (سنوك هورغرونيه) إلى أن الصداقة الألمانية لم يظهر لها أثر خلال حرب البلقان (سنة ١٩١٢) . هكذا كانت ألمانية ، حسب رأيه، إنما تبني سياستها على أساس مصلحتها الذاتية وحدها . وإذا كان من المؤكد أن الأتراك سوف يحصلون على بعض الفوائد من التحالف مع ألمانية خلال الحرب فالأمر كان لا بد أن ينتهي إلى وقوع تركية « تحت الحماية الألمانية » .

ثم يذكر (سنوك هورغرونيه) أن الألمان كانوا ،قبل اندلاع الحرب العالمية الأولى ، ينكرون أهلية تركية للإصلاح وقدرتها على النهوض . ويستشهد هنا بأقوال بعض الكتاب والمستشرقين الألمان . وعلى الرغم من أنه كان من قبل يعارض آراء الأستاذ (مارتين هارتمان) ويرفض أحكامه «المتسرعة»فإنه لايتردد في الاستشهاد بكلامه في هذه المناسبة . وهو يقول : « إن الأستاذ (مارتين هارتمان) ، مدرس العلوم الإسلامية بمعهد اللغات الشرقية في برلين ، الذي نشر عدداً كبيراً من المؤلفات الهامة عن الإسلام وعن تركية ، لايعرف أبداً الكلل في التأكيد ، على أن المسلمين عاجزون عن الإسهام في الحضارة الحديثة بسبب مؤسساتهم ومبادئهم الدينية التي « تحتقر المرأة وتستخف بعقائد الآخرين . » كذلك يذكرنا موقف(هارتمان) عند غارة إيطالية على(ليبية) في سنة ١٩١١ وقيام الدعوة إذ ذاك إلى الجهاد في سبيل الدفاع عنها ، إذ أخذ يطالب الشعوب المتحضرة بالوقوف معاً في جبهة واحدة ضد أي محاولة لإثارة التعصب الديني قائلاً: « إن الإسلام هو دين الكراهية والحرب ويجب أن لا يسمح له بالسيادة في العالم المتحضر . » ثم ينقل قوله : « إذا كان غرور الأتراك القومي من الظواهر التي لا تطاق ، فإن تعصبهم الديني وإعجابهم بعقيدتهم أشد وطأة من ذلك ... إن أتراك (إستانبول) عبارة عن خليط شنيع من الأوباش . أما مفهوم (الفلاح

الأناضولي الطيب ، الشريف) فليس سوى أسطورة ...

أما الأستاذ (بيكر Becker) فإن (سنوك هورغرونيه) يقول عنه إنه كان قبل الحرب العالمية الأولى يتفق مع (مارتين هارتمان) وغيره من المستشرقين والكتاب الألمان في العداوة للمسلمين والتشكيك في قدرتهم على الإصلاح والتحذير من خطرهم على المستعمرات الأوروبية وان استخدم لهجة معتدلة وتعابير أكثر اتزاناً وتهذيباً . وهنا ينقل (سنوك هورغرونيه) مقاطع من محاضرة كان (بيكر) ألقاها في المؤتمر الاستعماري في باريس (سنة ١٩١٠) وقال فيها : « إنه من مصلحة جميع الدول ذات العلاقة أن تتفاهم وتتفق على موقف موحد تجاه الإسلام. ويبدو لي أن ليس هناك من سبب للخوف من أن تتحالف إحدى الدول مع الإسلام لمعارضة خطط دولة أخرى ... وإذا كان التضامن الإسلامي ليس سوى وهم من الأوهام فإن تضامن العرق الأبيض حقيقة واقعة ... »

وقد استدرك (بيكر) في ردّه على هذا المقطع بالتنبيه إلى أن بحثه كان مقتصراً على السياسة الواجب اتباعها تجاه الزنوج المسلمين في المستعمرات الألمانية الإفريقية قبل الحرب العالمية الأولى . وهذا صحيح. ولكن ليس هناك ما يدل على أن موقفه تجاه المسلمين عامة كان يختلف عن ذلك في المبدأ .

وفي الحقيقة أهمل « بيكر » مبكراً دراساته العلمية المحضة وانصرف ، بعد تعيينه في سنة ١٩٠٧ ، أستاذاً في المعهد الاستعماري في « هامبورغ » ، الى المشاكل العملية المتعلقة بأهداف هذا المعهد من إعداد الموظفين الألمان الاستعماريين وتدريسهم الموضوعات الضرورية للقيام بمهامهم الإدارية في بلاد يؤلف المسلمون قسماً كبيراً من سكانها الزنوج . فكان يهتم بالعقائد والتقاليد الإسلامية والفقه الإسلامي والفرق والمذاهب والعادات والخرافات الشعبية واللهجات المحلية ، بالإضافة الى تاريخ الشعوب الشرقية ولغاتها ، والصحافة الحديثة ، وسياسة الدول العظمى الاستعمارية والإسلامية ؛ كما كان يعالج ، بالأخص ، مسائل عملية هامة ،

مثل أسباب انتشار الإسلام المتزايد في إفريقية، وهل في ذلك من خطر على السلطة الألمانية ؟ ثم كيف يجب أن يكون موقف الحكومة تجاه البعثات المسيحية التبشيرية ؟

ويرى « بيكر » عند تعليله لانتشار الإسلام بسرعة في إفريقية يصرح بأن الديانة الإسلامية ، التي تسمو بالزنوج إلى درجة أعلى من الحضارة وتمنحهم شيئاً من القوة المعنوية والانضباط الخلقي، لا تعزلهم من جهة أخرى عن بيئتهم الطبيعية في حين أن الزنوج الذين يعتنقون المسيحية يشعرون بأنهم قد فقدوا كل صلة بجذورهم القديمة دون أن يصبحوا أعضاء حقيقيين في البيئة الجديدة حيث يظل الأوروبيون، بما فيهم المبشرون، يعاملونهم دوماً على أنهم أولاد بلد « بلديّون». وهو ، على الرغم من اعترافه بأن المسلمين الزنوج يؤلفون طبقة أرقى من السكان، كان ينصح الحكومة الألمانية بالتشديد في مراقبة التجار المسلمين وحماية سكان المستعمرات من « استغلالهم » وتحريضهم ، كما كان يطالب بتشجيع البعثات التبشيرية المسيحية ومساعدتها في إنشاء الكنائس والمدارس للزنوج حتى تستطيع مكافحة الإسلام ، ويضيف قائلاً: «إنه لابد من حظر تأسيس الجوامع والمدارس الإسلامية ومنع سكنى المدرسين المسلمين في جميع المناطق التي تسيطر عليها البعثات المسيحية . وينبغي أن لا يستخدم في هذه المناطق موظفون وجنود مسلمون ، كذلك يجب هنا الوقوف في وجه كل تجارة يقوم بها المسلمون ... »

وعلى وجه العموم كان (بيكر) يثني على سياسة الانكليز والفرنسيين تجاه رعاياهم المسلمين ، ويوصي الحكومة الألمانية باتباع مبادئهم وأساليبهم والاستفادة من تجاريبهم الاستعمارية . .

كان « بيكر » أقــــام مدة في القاهرة بين سنتي ١٩٠٠ و ١٩٠١ والتقى بالإمام الشيخ محمد عبده وتتبع نشاط حلقة الكتاب في جريدة « المؤيد » ، ثم نشر في سنة ١٩٠٤ مقالاً عن « الجامعة الإسلامية » في مجلة « العلوم الدينية » .

فهو ، بعد استعراض تاريخي لتطور الخلافة في عهود الأمويين والعباسيين والأتراك العثمانيين وشرح آراء المذاهب المختلفة ، قد ركز اهتمامه في هذا المقال على الحركة الجديدة التي أثارها جمال الدين الأفغاني في البلاد الإسلامية والتي تدعو إلى توعية المسلمين وتقوية روابط الوحدة والتضامن بينهم للوقوف في وجه الاستعمار والتسلط الأوروبي . ويرى (بيكر) أن هذه الحركة لن تكون لها أي أهمية لأنها لم تنقلب إلى منظمة سياسية ذات أهداف محددة وطرائق معينة في إدارة العمل . وقد أشار إلى محاولات السلطان العثماني عبد الحميد الثاني الذي فكر آنذاك في استغلال لقب « أمير المؤمنين » ، واكتساب عطف المسلمين عامة لدعم مكانته الدولية . وذكر بصورة خاصة مشروع سكة حديد الحجاز التي تربط إستانبول بمكة ، والتي جمعت لها التبرعات من كافة أنحاء العالم الإسلامي ؛ وقال إن هذا المشروع ، لو يكتب له النجاح ، يمكن أن يصبح رمزاً حياً وقوة دافعة لحركة الجامعة الإسلامية ولكنه صرح باستحالة تحقيقه . كذلك تعرض « بيكر » إلى حرص السلطان العثماني على إحاطة نفسه بعدد كبير من رجال الدين ومشايخ الطرق الدينية . إلا أنه أبدى شكوكه في إمكان الاستفادة من هؤلاء الأشخاص الذين كانوا يتظاهرون بالتقوى والزهد ، ولكنهم في الواقع يؤلفون حكومة « جانبية » ذات تأثير سيء على سياسة الدولة ، لأنهم جميعاً لم يكونوا يفكرون إلا في مصالحهم الفردية . ويخالف « بيكر » الكتاب الفرنسيين الذين كانوا يبالغون في تقدير أثر الطرق الدينية في حركة الجامعة الإسلامية ويتفق مع « سنوك هورغرونيه » الذي كتب يقول : « أستطيع التأكيد على أن الطرق والجمعيات الدينية ليس لها أهمية كبيرة ضمن الحركة الإسلامية وذلك على الأقل في تركية والبلاد العربية وأكثر الأقطار الشرقية . » وفي مقال آخر بعنوان « هل في الإسلام من خطر على مستعمراتنا ؟ » ينتقد « بيكر » الدول الأوروبية التي تسمح بالدعاء للسلطان — الخليفة العثماني في صلاة الجمعة لأن ذلك يعني الاعتراف بسلطته السياسية ؛ وهو يدعو إلى نشر الحضارة الأوروبية في المستعمرات لمقاومة

الاسلام ولكن بشرط دراسة تعاليمه ومراعاة مشاعر المسلمين وتقاليدهم . .

* * *

يصف «سنوك هورغرونيه» السياسة الألمانية بالتقلب والتذبذب، ويسترسل، في الكشف عن التناقض بين موقف «بيكر» وسائر المستشرقين والكتاب الألمان من الإسلام قبل الحرب العالمية الأولى من جهة، ثم بين اتجاههم الفجائي المعاكس وتأييدهم لسياسة «تركية» الإسلامية بعد نشوب الحرب من جهة أخرى؛ وهو يدعي أن الألمان هم الذين دفعوا الحكومة التركية إلى إعلان الجهاد، ويتهمهم لذلك بالرجوع إلى تقاليد القرون الوسطى البربرية، وإثارة النعرات الدينية، دون مراعاة لمصالح الشعوب الأوروبية المشتركة .

وقد ردّ «بيكر» قائلاً : «لنسلم جدلاً أن ألمانية هي التي نصحت الحكومة التركية بإعلان الجهاد، فهل تعتبر إثارة الكراهية الدينية أفظع من حرب الإبادة المنظمة بأحدث أسلحة القتل الجماعي، ومن سياسة التجويع بالحصار الاقتصادي ومن أكاذيب الدعاية والتشنيع التي لجأ إليها خصوم ألمانية ؟ ألا يحق لألمانية، وهي تناضل في سبيل كيانها الوطني، أن تستخدم كل وسيلة لإضعاف أعدائها والإضرار بهم ؟ ألم يقدم هؤلاء الأعداء على استغلال الفروق القومية والعرقية والاجتماعية لإثارة المشاكل والاضطرابات في ألمانية ولدى حلفائها ؟ ويتساءل (بيكر) : «أليس من السخف اعتبار الخلافات الدينية وحدها شيئاً مقدساً لايجوز لمسها والاستفادة منها في الحرب ؟» ثم يلاحظ : «ان حركة الجامعة الإسلامية لا تقوم على مجرد الرابطة الدينية، بل ان لها صفة سياسية جوهرية أيضاً ... عدا أن خصوم تركية أنفسهم لم يتورعوا عن الاستعانة برجال الدين الإسلامي لمهاجمة الدولة العثمانية فنشر الإنكليز في الهند تصريحات بهذا المعنى لزعيم الطائفة الاسماعيلية (آغا خان) المعروف بإخلاصه لإنكلترة، وأرغم الروس مفتي بلاد القفقاس على إصدار فتوى مناقضة لفتوى شيخ الإسلام . »

على أن (بيكر) قد رفض مازعمه (سنوك هورغرونيه) من أن ألمانيةهي التي حرضت الأتراك على إعلان الجهاد ، وقال : « إن حكام تركية ما كانوا في حاجة إلى من يذكرهم بضرورة الاستفادة من شعور التضامن الإسلامي لمكافحة الدول التي كانت تطمع في تجزئة بلادهم واقتسامها . » ثم أضاف قائلاً : « ان (سنوك هورغرونيه) قد أخطأ في دعواه بأن رجال تركية الفتاة كانوا جميعاً يريدون الفصل نهائياً بين الدين والسياسة وأنهم لم يحافظوا على الخلافة بعد انقلاب سنة ١٩٠٨ إلا في سبيل إرضاء الرجعيين . فهو لم يلاحظ أن رجال الثورة كانوا ينقسمون إلى فرعين مختلفين : ١) جماعة العسكريين أصحاب النزعة الإسلامية الوطنية ؛ و ٢) جماعة اللاجئين الذين عاشوا في البلاد الأوروبية وافتتنوا بمبادىء الثورة الفرنسية . وبينما كانت الجماعة الثانية تسيطر على الصحافة كان رجال الجيش حول (أنور باشا) ، الذين قاموا فعلاً بالانقلاب ، يتولون الإدارة الفعلية . وهؤلاء العسكريون لم يكونوا يستسلمون إلى النظريات الخيالية ، بل يدركون أن شعباً كبيراً له ماض مجيد يستحيل أن يتخلى فجأة عن كافة تقاليده وأن تسلب منه قيمه الروحية ، وأن يستبدل بكل ذلك أنظمة مستوردة من بيئة حضارية غريبة عنه كلياً . » ويتابع (بيكر) فيقول : « إن هؤلاء القادة العسكريين الذين يخالطون الجنود مباشرة كانوا أقرب إلى جماهير الشعب وأعرف بحاجاتهم من اللاجئين العائدين من باريس ؛ وقد علمتهم التجارب في حرب البلقان بأنه لا يمكنهم الاعتماد في الحرب إلا على العناصر الإسلامية . . »

كان الرجال المسيطرون على السياسة التركية قبل الحرب العالمية الأولى يرغبون في أن تصبح الدولة العثمانية دولة إسلامية عظمى من طراز حديث، وعلى أسس عصرية يتمتع فيها الجميع بحقوق المواطن الكاملة ، وتعتمد في الوقت نفسه على صلات دولية وثيقة بالمسلمين في كافة أنحاء العالم،تدافع عنهم وتساعدالخاضعين منهم للحكم الأوروبي على الاستقلال . إلا أن تركية وجدت نفسها بعد نشوب الحرب العالمية الأولى في موقف صعب جداً ، ولم يكن خافياً على حكامها أن

الوقت قد حان لتقرير مصيرها سواء اشتركت في القتال أو لم تشترك . وكان معروفاً أن انكلترة وروسية وفرنسة قد اتفقت على تقطيع أوصالها ، واقتسام أجزاء كبيرة منها . وعلى الرغم من تخوف بعض الزعماء من الانضمام الى ألمانية فقد قرر أكثر الوزراء توقيع معاهدة التحالف مع ألمانية في (٢) آب سنة ١٩١٤ .

لم يكن من المعقول أن يتخلى الحكام الأتراك في ذلك الوقت عن استخدام أقوى سلاح في أيديهم فأسرعوا إلى تحريض المسلمين الخاضعين لسلطة أعدائهم على الثورة . وكان طبيعياً أن يحبذ الألمان هذه الخطوة . وقد استغرب (بيكر) أن يتهم (سنوك هورغرونيه) الأتراك بالرجوع إلى تقاليد القرون الوسطى متناسياً أن أعداء تركية كانوا قد سبقوها إلى استخدام الكراهية الدينية لإثارة البلغار واليونان والأرمن ضدها . ثم يتساءل (بيكر) : « هل انخدع (سنوك هورغرونيه) بالدعاية الانكليزية ـ الفرنسية أم إن هناك أسباباً أخرى دفعته الى انتقاد سياسة ألمانية الإسلامية ؟ وهنا يذكرنا « بيكر » بأن هناك من « ٣٠ » إلى « ٣٥ » مليوناً من المسلمين في جزر الهند الشرقية كانوا يخضعون إذ ذاك لحكم « ٤ » أو « ٥ » ملايين من الهولنديين . وقد ذهب « سنوك هورغرونيه » إلى أن نداء الجهاد موجه الى هؤلاء المسلمين أيضاً على الرغم من أن الحكومة التركية قد أكدت للدول المحايدة أنها لا تقصدها وعلى الرغم من أن مستعمرات هولندة بعيدة عن ميادين القتال ، وليس لها من علاقات تربطها بتركية . أضف إلى ذلك أن « سنوك هورغرونيه » نفسه كان يصرح دوماً بأن بلاده واثقة كل الثقة من إخلاص رعاياها المسلمين بفضل « سياستها الإسلامية الواعية » القائمة على أساس تهذيب السكان ودمجهم في الحضارة الحديثة ولذلك فهي لا تخاف من حركة الجامعة الإسلامية . ولكن يبدو أن ذلك لم يكن صحيحاً ؛ لأن الحكومة الهولندية ، التي كان « سنوك هورغرونيه » مستشاراً لها في الشؤون الإسلامية ، كانت لا تسمح أبداً للمسلمين في « إندونيسية » بالدعاء للخليفة في صلاة الجمعة كما كانت تمنع كل اتصال

بين هؤلاء والبلاد الإسلامية الأخرى مما يبرهن على خوفها من هذه العلاقات الدولية .

إن « سنوك هورغرونيه » أيضاً كان يخشى من تأثير الدعاية الإسلامية في سكان المستعمرات الهولندية ، لأن النشرات التي طبعت في إستانبول ووزعت في البلاد المستعمرة كانت تدعو إلى الاستقلال الوطني وتنادي بأن الهند يجب أن تكون للهنود وجاوة للجاويين والجزائر للجزائريين المسلمين .

وهكذا يمكن القول إن « سنوك هورغرونيه » لم يهاجم السياسة الألمانية ويتهمها بالسعي وراء أهداف استعمارية في تركية إلا في سبيل الدفاع عن الاستعمار الهولندي في « إندونيسية » .

وفي الحقيقة فإن (سنوك هورغرونيه) الذي يعدّ من أكبر المستشرقين قد وقف كل جهوده على خدمة سياسة بلاده الاستعمارية .

انتقل بادىء الأمر من دراسة اللاهوت إلى التخصص باللغات السامية . وقد سافر في سنة ١٨٨٤ - ١٨٨٥ إلى جدة ثم منها إلى مكة باسم مستعار : (عبد الغفار) ، وأخرج من هناك بعد إقامة ستة أشهر على أثر وشاية من قنصل فرنسة في جدة . وفي سنة ١٨٨٩ عهد إليه حاكم جزر الهند الشرقية الهولندي بدراسة أحوال المسلمين في جاوة ، وعين بعد سنتين مستشاراً دائماً في وزارة المستعمرات كما تولى منذ سنة ١٩٠٦ تدريس اللغة العربية في جامعة « ليدن » .

لم يؤلف « سنوك هورغرونيه » إلا القليل من الكتب . ولكنه نشر الكثير من الأبحاث والتعليقات والانتقادات في الصحف والمجلات والموسوعات كما ألقى العديد من المحاضرات . ومعظم هذه الأبحاث تدور حول تعاليم الإسلام ، وبصورة خاصة ، حول شؤون المسلمين في العصر الحديث . وقد جمعها تلميذه وخليفته على كرسي اللغة العربية في جامعة « ليـــدن » الأستاذ « وينسنك Wensinck » وأصدرها في (٧) مجلدات بعنوان « كتابات متنوعة » .

على أن القسم الأكبر من دراساته وآرائه قد كتبه في شكل تقارير قدمها إلى وزارة المستعمرات الهولندية وهي محفوظة في خزائن الوزارة لم تنشر حتى الآن .

إن أهم مؤلفاته هي « المحاضرات عن المحمدية » أي الإسلام التي ألقاها في أمريكة في سنتي ١٩١٤ - ١٩١٥ ونشرت في كتاب على حدة ؛ ثم بالدرجة الأولى كتابه « مكة » الذي كتبه باللغة الألمانية ونشره في مجلدين في سنتي ١٨٨٨ و ١٨٨٩ والذي تكلم فيه على رحلته إلى الحجاز ووصف فيه مكة المكرمة وصفاً دقيقاً من الناحية الجغرافية واستعرض تاريخها منذ القديم ، وراجع ما كتبه الجغرافيون والمؤرخون العرب عنها ، وذكر مشاهير رجالها وعلمائها ، وتحدث عن أوضاع سكانها حسبما شاهدها ، ووصف عاداتهم وتقاليدهم . ويتفق علماء الاستشراق على أن لكتابه هذا قيمة كبيرة وهم يعدونه من أهم المراجع عن الإسلام .

في كلمة نشرها المستشرق الألماني (جوزيف شاخت) في مجلة « الإسلام » سنة ١٩٣٧ لرثاء أستاذه (سنوك هورغرونيه) نعته باللقب المفضل لدى العرب المسلمين وهو « العالم العامل » قائلاً إن هذا الوصف ينطبق كل الانطباق على (سنوك هورغرونيه) لأنه يستحيل أن نفصل الناحية العلمية في نشاطه عن الناحية السياسية الاستعمارية . فهو قد أغنى علم « الإسلاميات » بكثير من المعلومات والأبحاث النظرية ولكنه كان في الوقت نفسه يرى ضرورة استخدام معرفته لبناء سياسته الاستعمارية التي كان يقول إنها « تقوم على الشعور بالمسؤولية الأخلاقية وترمي إلى التفاهم والتقارب بين الشرق والغرب . »

ولنستمع إليه يشرح لنا هو نفسه الغرض من رحلته إلى الحجاز . قال : « إنني ، عندما سافرت إلى بلاد العرب وقضيت مدة سنة في جدة ومكة لم يكن مقصدي التعمق في دراساتي اللغوية بقدر ما كنت أهدف إلى مشاهدة مظاهر

الحياة البيتية والاجتماعية التي يسيطر عليها الإسلام في بقعة لم تتعرض فيها الحضارة الإسلامية إلا إلى أقل ما يمكن من آثار النفوذ الأوروبي عدا أنها لا تخضع بالمرة إلى إشراف أوروبة ورقابتها . كذلك كنت أريد أن أرى بعيني التأثيرات التي يحدثها الإسلام في سائر البلاد من هذا المركز الذي يتهافت اليه الحجاج أفواجاً من كل أنحاء العالم ، وأن أراقب بصورة خاصة تأثيره في القادمين من عالم جزر الهند الشرقية ، وكان مفهوماً ، بطبيعة الحال ، أنني لا أستطيع بلوغ غايتي هذه إلا عن طريق الاختلاط المباشر بالسكان ثم عن طريق الدراسات اللغوية ، ومعرفة الأمثال والتعابير الشائعة بين أهل مكة ... »

في بحث كتبه (سنوك هورغرونيه) عن تطور الاستشراق في هولندة يقول : « إن المستشرقين الهولنديين كانوا ، حتى أواخر القرن الثامن عشر يهدفون من جهة إلى فهم الكتاب المقدس فهماً أعمق ومكافحة الإسلام ، ثم من جهة ثانية إلى معرفة دقيقة بخصائص سكان المستعمرات ليتمكنوا من المتاجرة معهم واستغلالهم . إلا أنه ، منذ أوائل القرن التاسع عشر ، تخلى المستشرقون عن هذه النظرة الأنانية الضيقة وعن السياسة الاستعمارية ـ الاستثمارية ، وشعروا بالمسؤولية الأخلاقية تجاه الشعوب التي تعيش تحت وصايتهم وأدركوا أن من واجبهم « تعليم هذه الشعوب وتهذيبها حسب استعداداتها . » وكان (سنوك هورغرونيه) يجاهر بأنه من دعاة هذه السياسة الجديدة ، العلمية ، المستوحاة من دوافع أخلاقية والتي تهدف إلى التفاهم بين الشرق والغرب ، وتسعى إلى إدماج المؤهلين من سكان البلاد في حضارة الهولنديين .

هنا لا يسعنا إلا التساؤل : ما الفرق بين أهداف (سنوك هورغرونيه) وأهداف المستشرقين السابقين الذين يصفهم بالأنانية ؟ لماذا كان يعكف على دراسة العربية ولغة المسلمين الأندونيسيين ، ويحاول أن يتعرف إلى عقائدهم وتقاليدهم وعاداتهم ، وإلى العوامل التي تؤثر في سلوكهم ؟ ألم يكن قصده إبقاء

هؤلاء السكان تحت الحكم الهولندي للاستفادة من خيرات بلادهم واستثمار جهودهم ؟ حقاً إنه لا يتحدث عن السيطرة والاستغلال ، بل إنما يردد كلمات التفاهم والتقارب والتهذيب والمسؤولية الأخلاقية. أما حقوق السكان الأندونيسيين في الحرية والاستقلال والتقدم فلا وجود لها في كل أبحاثه .

* * *

لقد تبين من المناقشة حول الجهاد التي جرت بين (سنوك هورغرونيه) و (بيكر) كيف أن كل واحد منهما قد اتهم الآخر بخدمة الاستعمار ، وهما على الرغم من استنادهما ، في الظاهر ، إلى طرائق البحث العلمي وشهرتهما العلمية الواسعة ، لم يتورعا عن اتباع الأساليب الملتوية في الجدل من تلاعب بالألفاظ وتحريف الكلام وتغيير سياقه ومن المغالطة وتعمد كتمان الحقيقة أو الاقتصار على أجزاء منها ، ولا عجب في ذلك. فالعلم ، عندما يستخدم لتسويغ الاستعمار والدفاع عن مطامعه وتعدياته على حقوق الشعوب ، يفقد كل دعامة أخلاقية وقيمة إنسانية .

إن العلم بالمعنى الصحيح لا يتعارض مع العمل وخدمة الوطن ، ولكنه يتطلب منا في الوقت نفسه التمسك بالموضوعية والحياد والتسامح ، والشجاعة في البحث عن الحقيقة والجهر بها والدفاع عنها ، وبالتالي يفرض علينا أن نتقيد في سلوكنا وأعمالنا بالنتائج التي تتوصل اليها المعرفة العلمية ، كما أنه لا يسمح لنا بامتهان الكرامة الإنسانية والقيم المعنوية ، أو مخالفة مبادىء الشرف والإنصاف .

محمد كامل عياد